

كيف نتقن أنفسنا ؟

برنامج للدارسة الذاتية

لم يكن الفرق بين الجاهل والعالم قبل ألف أو ألفي سنة عظيما ، لأن المعارف الانسانية لم تكن قد تجتمعت الى الحد الذي يميز تميزا كبيرا بين من يعرفها ومن يجهلها ، وكذلك لم تكن هذه المعارف قد انتظمت علوما مدروسة تقوم على التجربة . فهي حتى حين تجتمعت كانت خليطا أشبه الأشياء بالمواد الخامة : لم تصهر ولم تسبك لتصير آلات نافعة . ولكن هذه المعارف في عصرنا قد تجتمعت وانتظمت حتى صار منها ما يزيد على مائة علم ، لكل علم معارفه وقواعده . فالفرق عظيم لهذا السبب بين الجاهل والعالم . بحيث يمكن أن يقول الانسان إن الفرق بينهما أحيانا هو فرق بين الانسانية قبل ٤٠٠٠ سنة وبينها الآن . فالذي يريد أن يعيش في عصرنا الحاضر يجب أن يتقن نفسه بثقافة هذا العصر .

ثم هناك ضرورة أخرى تقضى علينا بأن نتقن أنفسنا . وذلك أن العالم قد تقارب وتشابك بحيث أصبحنا لا نفهمه فهما ابتدائيا - ولا نقول مثقفا - إلا مع الدرس . وليس من المبالغة أن تقول إن العالم ليس مدينة واحدة بل هو قرية واحدة يتسمع أحد سكانها للكلام الآخرين بل لهمهم . فإني أسكن في القاهرة شارعا ما ، فلا أكاد أسمع البائع المنادى في الشارع المجاور ، ولكنني أفتح الرديفون فأسمع الحديث في لندن أو باريس . والجريدة اليومية تنبئني كل يوم الى ما حدث في بكين أو نيو يورك أو مدينة الكاب .

بل وأنا قاعد الى المسائدة أتناول الغداء قد آكل الرز الياباني وأشرب قهوة برازيل بأدوات من الخزف المصنوع في تشيكوسلوفا كيا . وقد يكون بعض ملابسي مصنوعا في اليابان أو إيطاليا ، والورق الذي أكتب عليه قد جاءنا من فلندا ، والقلم الذي أكتب به من إنجلترا .

ومع هذا التقرب بين الأمم أو مع هذا الاشتباك لم تتبسط مسائل العالم بل تعقدت . والأصل في هذا التعمد أن العلوم الجديدة تصطدم بالتقاليد السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا الاصطدام إما أنه يؤدي الى تطور وإما الى انقلاب . بل إن كلمة "تطور" ما كانت

تدل على معنى لولا كتاب داروين الذى ألفه سنة ١٨٥٩ والذى أصبح أثره فى التنشئة والحضارة معا لا حد له ، ويمكن ان نصف هذه اللقطة بأنها محورية فى الرقى البشرى . وهذه العلوم الجديدة تنظم وتنسق المعارف وتوجه التفكير الى غايات وأهداف لم تكن موضوع اهتمامه من قبل . فالعلم يعرف الطب منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، ولكنه لم يعرف البيوجينية أى اصلاح النسل إلا منذ خمسين سنة . وعرف الأيكولوجية والتحليل النفسى وغيرهما منذ أقل من هذه المدة . والايكولوجية هى درس الانسان أو الحى عامة باعتبار البيئة . وها هو ذا رلز الكاتب الانجلىزى ينبه فى كتاب أخير له عن ضرورة "النظر الايكولوجى للمسائل الانسانية" أما التحليل النفسى فان وفاة فرويد قبل شهرين أو ثلاثة قد نبهتنا الى هذا العلم أو الفن الذى ابتدعه . وقد يقال إن هذه علوم لها معاملتها والمتخصصون لها . ولكن ما من علم إلا وله أثره فى حياتنا الاجتماعية . ثم هناك المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى لا يمكن أن نفهم النضال الأوروبى القائم الآن إلا اذا درسناها . وحسبنا مثالا على ذلك حركة هتلر وحدها . فمن عجيب ما قرأنا حديثا مقال فى مجلة "كومون سنس" الأمريكية للكاتب المعروف بيتر فيريك يربط فيه بين هتلر وبين الألحان الموسيقية التى ابتدعها فاجنر . وقد ضربنا هذا المثل لا اغرابته ، ولكن لكى نبين التعقد والتشابك القائمى فى الثقافة العصرية ولنقول مرة أخرى إن الفرق عظيم جدا بين من يعرفهما ومن يجهلها .

وليس شك فى أن هذا التعقد يحتاج إلى الاخصائين . بل لقد بلغ من الكسيس كاريل العالم الأمريكى أن يقترح اختيار الأذكاء من الأطفال فى الخامسة أو السادسة من العمر وإرصادهم للدرس مدى حياتهم حتى يوفقوا بين هذه العلوم ويستخلصوا منها ثمرات تنفع فى إصلاح البشرية وحسن تطورها : رهباينة جديدة فى خدمة العلوم والاجتماع . ولكن لا يمكن الإصلاح إلا إذا كان كل فرد من أفراد الجمهور على شىء من الثقافة العصرية وعلى إلمام قليل أو كثير بهذه العلوم . فإن الإصلاح فى عصرنا وفى الأمم الديمقراطية لا يتم إلا برضى الشعب . فإذا كان أفراد هذا الشعب جهلاء فإن جهلهم يعطل ويؤخر ويعاكس جميع حركات الإصلاح .

ثم هناك هذه الشخصية الانسانية التى لا ترقى إلا إذا حصل صاحبها على مقدار من الثقافة العصرية . وأى شعور هذا الذى نشعر به حين نقرأ أن سيدة أمريكية بلغت الخمسين وتزوجت وأنسلت وترملت . ثم شرعت بعد هذه السن المتقدمة تلحق بالجامعة وتدرس ما فاتها دراسته أيام الشباب . وهذه فنلندا التى كنا نأسى لحالها فى الأشهر الأربعة الماضية تعرف جامعاتها الطلبة فى سن الخمسين والستين . وقد يحضر للدرس والد مع ابنة كلاهما طالب ينشد الثقافة .

ولكن الجامعات ليست متوافرة للجميع . والثقافة العصرية التي نحتاج إليها لكي نفهم عالمنا ليست مقصورة على الجامعات . فإن الكتاب الذي وصفه كارليل بأنه جامعة الشعب يقوم عند كثيرين من المثقفين الراغبين في الرق الذهني مقام الجامعة . بل هو أحيانا السبيل إلى التبريز والتفوق . وكثير من العلماء والأدباء والساسة مثل أديسون وداروين وبرناردشو وتولستوى وموسوليني وأتاتورك لم يتعلموا في جامعة مع أن كلا منهم قد شق الخطط الجديدة في التفكير والاصلاح . فيجب ألا يحتج أحدنا بأنه لم يحصل على تعليم جامعي ، وأن هذا الحرمان يبرر جهله أو ركونه إلى جهله . فما دامت في العالم مطابع فإن تيار الثقافة لن ينقطع .

ولكن كيف نتقف أنفسنا عن سبيل الكتاب ؟

١ - إننا ننتمى إلى جامعة بشرية تضم نحو ألفى مليون من الآدميين قد ورثوا ثقافة عامة من جميع الأمم الماضية . وهم جميعا يرتبطون برباط بشرى . فيجب أن ندرس تاريخ هذه البشرية ، مما اهتدت إليه من اكتشاف وما تجبطلت فيه من أخطاء ، وما عرفته من نظم سياسية واجتماعية وأخلاقية زمانا ومكانا أى تاريخيا وجغرافيا ، أى أننا ننظر إلى التاريخ البشرى تلك النظرة الايكولوجية التي تقابل وتربط بين البيئة والحى . وليس شىء في الثقافة يجعل الانسان انسانيا مثل هذا التاريخ العام للبشر جميعهم ، فاننا نشعر عندئذ أن لنا وطنا هو العالم كله ، وأن جهاد الصين للحرية الآن هو جهادنا وأن ثورة أخناتون لهدم الأصنام هى ثورتنا . وأن فلسفة ارسطو طاليس هى بعض أدواتنا في التفكير .

٢ - ثم نحن ننتمى إلى جامعة دينية لها الأثر العظيم في مجتمعتنا وبيئتنا وأخلاقنا ، فيجب على كل منا أن يدرس ديانتة أصلا ويدرس غيرها فوعا للقبالة والاستارة والتوسع الذهني . ولا يمكن أن يمد أحد نفسه مثقفا إذا كان يجهل ديانتة وكتبها المقدسة فانه يعيش في وسط متطبع بها قد أخذ دستوره الاخلاقي منها وانتظم مجتمعه على أسسها .

٣ - ثم نحن ننتمى بعد ذلك إلى جامعة وطنية . نحن أمة ترتبط باللغة والتقاليد والتاريخ والمحن . فيجب أن ندرس تاريخ وطننا ونحب العالم لأننا نحب . ونفهم قواعد الاجتماع في الأمم الأخرى لأننا نفهم اجتماعنا . ومهما يكن لنا من عواطف البرفاننا لن نجد المجال لممارستها في أحسن من بلادنا التي لا يمكن أن نعرف بلادا أخرى خيرا مما نعرفها .

٤ - ونحن نعيش في عصر يسيطر عليه العلم . بل إن هذه الأمتير القليلة الماضية قد أثبتت أن هذه السيطرة قد تكون تسلطا وحشيا ، ولذلك لا يمكن أحدنا أن يكون مثقفا يعيش في عصره ويفهمه إلا إذا درس علما من العلوم . وعندئذ يستطيع أن يدرك روح العصر ، أى روح التجربة . وليس من الصعب أن يدرس أحدنا علما خاصا مثل الاقتصاديات . أو السيكولوجية أو البيولوجية أو التاريخ أو غيرها . بل إن هذه الدراسة العلمية تنظم سائر الدراسات .

٥ — وهناك من الوسائل ما يمكن أن نستعين به على الدرس ، فأننا مثلا في غضون دراساتنا سنتلقى بكثير من المؤلفين . ولا بد أننا نؤثر واحدا على آخر . وهذا المؤلف الأثير عندنا يجب أن ندرسه بعناية خاصة أى أننا لا نترك له كلمة إلا ونقرأها ، بل لا نترك كلمة قيلت عنه إلا ونفتش عنها . ومثل هذا الدرس يجعلنا شركاء لهذا المؤلف في تفكيره وتطوره الثقافي فكأننا قد عشنا حياته ومارسنا صعوباته ودرسنا عصره ، ولو شاء أحدنا أن يدرس تاريخ أوروبا في القرن الثامن عشر لكان حسبه من هذا الدرس أن يقرأ جميع مؤلفات فولتير وترجمته وما كتبه خصومه عنه ، وهو هنا لن يفتنع فقط بتاريخ عصره بل هو أيضا سيتفتنع بهذا التطور الذهني الذي كان له أكبر الأثر في المجتمع الأوربي . وكذلك الشأن في أى مؤلف آخر . فأننا لكي نتقن أنفسنا الثقافة الحسنة يجب أن نختص — إلى جنب دراسات مختلفة — بدرس أحد المؤلفين درس الإحاطة .

٦ — ولكن لكي نتقن الثقافة التي نشهد يجب أن يكون لنا هدف نقصد إليه بحيث يكون كالنهر تتجمع فيه مجارى دراساتنا ، فأنت مثلا لماذا تريد أن تتقن نفسك ؟

بالطبع وقبل كل شيء لكي تفهم عصرك وضمي شخصيتك ، وهذا حسن . ولكن لكي يبقى اهتمامك حيا ولكي تجد كل يوم الحافز الملهوس في دمك وأعصابك يجب أن يكون لك هدف تشعر كل يوم أو كل عام أنك تقترب منه بالدراسة المستمرة . فيجب أن تختص بدراسة معينة لعلم أو أدب أو فن أو صناعة .

٧ — ولكن العلوم والفنون في زماننا ليست راكمة ، بل هي في حركة قد تكون تطورا . وأحيانا قد تكون انقلابا . فيجب لكي نبقى على دراية بهذا العلم أو الفن الذي ندرس أن نوالى قراءة كل ما يتعلق به في الكتب وفي إحدى المجلات التي تعالجه . وليس في العالم علم أو فن إلا وله مؤلفات ضخمة في بحثه . ولكن له أيضا مجلات لا ينقطع صدورها وهي توالى درس الجديد ونقد القديم من الآراء التي تتصل به .

وللتلخيص ، نقول إن عصرنا يطالبنا بالدرس . وليس من الضروري أن يكون هذا الدرس جامعا . فإن الكتاب والمجلة طريقتان سويتان للدرس . وكل ما نحتاج إليه أن ننظم دراساتنا من حيث تعيين ما ندرس . فإن كل رجل مثقف يجب أن يدرس التاريخ البشري كما يدرس كتبه المقدمة وتاريخ وطنه . ثم عليه أن يختص بدرس أحد العلوم لكي يكسب منه النظرة العلمية وروح التحقيق التجريبي . وهو يحسن كل الإحسان إذا اختص بالاحاطة بدرس أحد المؤلفين كما يحسن إذا داوم على قراءة مجلة جديدة تعالج العالم أو الفن الذي قد تعلق به .

ولكن قد يقال هنا إن هذا برنامج حسن وأتينا نسلم بأن الكتاب هو جامعة الشعب أو يجب أن يكون كذلك . فهل في اللغة العربية من الكتب ما يكفي لأن نتقف أنفسنا حتى نسير على هذا البرنامج الذي وصفنا دون أن محتاج إلى تدريب الجامعة ؟

والجواب أننا مع الأسف لا نستطيع أن نقول ذلك . فإن الكتاب في اللغة الإنجليزية أوجد الأديب العظيم برنارد شو ، والمفكر الفيلسوف هربرت سبنسر . وليس الكتاب في اللغة العربية مما يتيح التكشف لمثل هذه العبقرية . على أننا حين نطلب الثقافة لا نعني أن نكون كلنا عبقرين . وحسبنا أن نستزير ونفهم عصرنا . وفي اللغة العربية من المؤلفات ومن المحلات ما يكفي للاستنارة العامة . وبدهي أن القاصر على درس إحدى اللغات الأوربية الحديثة يمتاز امتيازاً بارزاً على من يقتصر على العرفان باللغة العربية . ولكن يجب أن نطلب الممكن ونستغل هذا الممكن . فإذا كنا نجهل إحدى اللغات الأوربية فإن لدينا من المؤلفات العربية ما يجب أن تقبل عليه وتدرمه .

من غرر الدرر

(لعلي بن أبي طالب)

- أقل ما يجب عليكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه .
- لو رأى العبد الأجل ومصيره لأبفض الأمل وغروره .
- المسئول حرحتي يعد .
- العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .
- يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم .
- ماء وجهك جامد يقطره السؤال ، فانظر عند من تقطره .
- أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .
- للظالم ثلاث علامات : يظلم من فوقه بالمصيبة ، ومن دونه بالغبية ، ويظاهر الدوم الظالمين .
- أكبر العيب أن تعيب على الناس ما فيك مثله .
- لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً .